نشأة وتطور الجامعة اللبنانية

قامت دون تخطيط وحاربها النظام والجامعات الاجنبية

مثل الجامعة اللبنانية بالنسبة للنظام اللبناني ـ حسب قول احد عمدائها ـ كمثل « الام التي انجبت طفلا ثم ندمت على ذلك ، ولذا فهي تحاول التخلص منه بشتى الوسائل » .

اذا كنا سنتطرق الى موضوع الجامعة فلا بد لنا ان نلقي نظرة تاريخية موجزة على التعليم الجامعي غير الوطني في لبنان ثم على نشوء هذه الجامعة وتطورها .

لقد كانت ولادة التعليم العالي في لبنان نتيجة سلسلة طويلة من العمل التبشيري الدؤوب فجاء محكوما بعلاقات سياسية ـ طائفية تتميز بالتنافس التبشيري الذي انعكس على العلاقات الطائفية ـ الثقافية . لقد جاءت هذه الولادة في الثلث الاخير من القرن التاسع عشر اي في اطار قيام نظام المتصرفية وتحول بيروت الى مركز للثقل الاقتصادي والثقافي والسياسي ، ومحاولة فرنسا لفرض هيمنتها على المنطقة معتمدة على بيروت كقاعدة للانطلاق نحو الداخل السوري بعد ان لعبت الارساليات والرساميل الفرنسية دورا اساسيا في هذا المجال .

وهكذا لعبت الجامعة الاميركية التي تأسست عام ١٨٦٦ والجامعة اليسوعية التي تأسست عام ١٨٧٥ دورا فاعلا ضمن مجموعات طائفية تدعو الى الانتداب الفرنسي بعد الحرب العالمية الاولى او الى الانتداب الاميركي .

والقاعدة التي تأسس عليها هذا التعليم العالي الاجنبي قاعدة بنيوية شديدة التخلف ورثت الكثير من البنى القبلية والعشائرية والنظام العائلي ، وخاصة الطائفية التي دخلت في التركيب السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي للمنطقة .

وفي ظل الانتداب الفرنسي اصبح للجامعة اليسوعية دور اساسي في امتداد السيطرة الفرنسية وساعدت على ترسيخ انتدابها في سوريا ولبنان بمدها بالكوادر . السياسية والاقتصادية . اما الجامعة الاميركية فقد توجهت نحو تخريج الكادرات اللازمة للمشاركة في حكم فلسطين وشرقي الاردن والعراق والسودان ومصر وغيرها بالاضافة الى زيادة نفوذ الاميركيين في المنطقة للحلول مكان الفرنسيين والانكليز بعد الحرب العالمية الثانية .

ولقد سارت الجامعة اليسوعية في عهد الانتداب خطوات واسعة لتصبح « جامعة الدولة اللبنانية » اذ كان لها الدور الاساسي في تخريج كافة القياديين لهذه الدولة اللبنانية ، فجميع الذين شغلوا منصب رئاسة الجمهورية اللبنانية ، قبل الانتداب وبعده ، من بين خريجي هذه الكلية دون سواها . وقد بلغ عدد النواب لعام ١٩٦٤ المتخرجين من هذه الجامعة ٨٥ نائبا من اصل ٩٩ .

نشأة الجامعة اللبنانية وتطورها

« ان دولة الاستقلال ، تماما كدولة الانتداب لم تشعر بحاجة عملية لولادة هذه الجامعة اللبنانية ، بل بقيت الجامعة اليسوعية كجامعة الدولة التي لا غنى عنها ولا حاجة لسواها » (١) .

فالبرجوازية اللبنانية التي لم تستفد من التجربة الاوروبية في بناء الدولة الحديثة وفي ايجاد جامعة وطنية تخدم حاجاتها المستقبلية ، فانشاء جامعة وطنية لبنانية لم يكن لينسجم مع نمط الحكم الطائفي ـ الطبقي الذي مارسه « قادة الاستقلال » فولادة هذه الجامعة سيكون بالضرورة عامل ازعاج للجامعتين الاميركية واليسوعية . « ولما كان دور الاميركية هامشيا على الصعيد المحلي طيلة عهد الانتداب ومطالع الاستقلال ، ولما كانت الاغلبية الساحقة من طلابها من الاثرياء ، فان ولادة الجامعة اللبنانية سيكون بالضرورة ضربة اليمة لتطور وهيمنة الجامعة اليسوعية » (٢) .

ويشير كتاب « المراجع المؤسسية والوثيقية لانماء الموارد الانسانية في لبنان » في حديثه عن نشأة الجامعة اللبنانية بقوله : « نشأ التعليم العالي كامتداد طبيعي لنشاط المؤسسات التعليمية الاجنبية الثانوية الموجودة في لبنان .. ويعود انشاء الجامعة اللبنانية الى عام ١٩٥١ (بدأ المعهد يمارس نشاطه عام ١٩٥٢) وتجدر الاشارة الى ان الجامعة اللبنانية لم تنشأ طبيعية بفعل الحاجة الوطنية لوجودها . ولم يكن هناك بالاصل اي تخطيط مسبق لانشاء مثل هذه الجامعة . فقد لعبت الضواغط الاجتماعية التي تكونت داخل المجتمع اللبناني دورا كبيرا في ابراز هذه الجامعة الى حيز الوجود » .

هذا الواقع الموضوعي حتم ان تبدأ الجامعة اللبنانية بمعهد للمعلمين العالي ، اي لتخريج اساتذة التعليم الثانوي . ثم اجبرت الدولة اللبنانية على انشاء بعض الكليات النظرية في اوائل الخمسينات وبداية الستينات ، تحت ضغط القوى الشعبية ونضالاتها . غير انها عمدت دائما الى وضع احد خريجي الجامعة اليسوعية على رأس كل كلية ومعهد وعلى رأس هرم الجامعة اللبنانية كلها .

ان فترة الخمسينات التي شهدت نموا كبيرا في الدور الاقتصادي الذي تلعبه بيروت خاصة بعد تدفق الرساميل النفطية اليها وتحول التجارة الخارجية العربية الى مرفأها (بعد اغتصاب فلسطين) وازدهار القطاع المصرفي وما رافقه من نشاط كبير في مجال الخدمات والتصدير والاستيراد ونمو الصناعة والاصطياف والسياحة ... سهلت كثيرا من انتشار التعليم في مختلف انحاء لبنان وشهدت ولادة العديد من المدارس الثانوية بحيث باتت الجامعتان الاميركية واليسوعية عاجزتين عن استيعاب المتخرجين الثانويين ، فلجأت الدولة الى انشاء معهد المعلمين العالي الذي شكل مدخلا الى ازدياد المطالبة بالجامعة اللبنانية الوطنية ..

ان الجامعة اللبنانية لم توجدها الدولة اللبنانية، بل ولدت بفعل الضواغط الاجتماعية اي ضغط الطلاب والقوى الشعبية . وهي لم توجد لملء الفراغ الجامعي على الصعيد الوطني بل لاتمام بعض الثغرات في الجامعات الاجنبية .

الصعوبات والعراقيل المتتابعة

وان كانت الجامعة اللبنانية قد استطاعت ان تفرض نفسها بعد مرور عدة سنوات على انشائها فقد واجهت هذه الجامعة وما تزال صعوبات عديدة رافقت تطورها وتوسعها . فكما حاول اليسوعيون اقفال جامعة دمشق ايام الانتداب حاولوا ايضا الضغط بكل وسائلهم للحيلولة دون توسع الجامعة اللبنانية وتطورها خوفا من ان تشكل هذه الاخيرة بديلا لها . وخوفا من ان تتحول الى بؤرة وطنية وعروبية .

لقد حرص النظام اللبناني حماية « لتوازنه الطائفي » المعتمد منذ الانتداب على الحفاظ على دور الجامعات الخاصة . وتمثل هذا الحرص في الدعم المتزايد الذي قدمته الدولة للجامعتين اليسوعية والاميركية ، بينما تجاهلت الجامعة الوطنية واحتياجاتها .

وهذه العلاقة غير الطبيعية بين الدولة والجامعة اللبنانية تعود في اساسها الى تجاهل ارباب النظام السياسي لوجود وتطور الجامعة الوطنية . وقد تجلت هذه العلاقة غير الطبيعية في ممارسة كافة اشكال التضييق ضدها بحيث لم يسمح لها حتى الان بالاكتمال ، بل بقيت اسيرة كليات نظرية ذات دور هامشي ، كما تجلت ايضا في حماية الجامعات الاجنبية والخاصة ومدها بكل اسباب الوجود ، المادي والسياسي ، وانقاذها من الافلاس ، وتقديم كامل الدعم لها مقابل المزيد من الضغوط ضد الجامعة اللبنانية ولجم تطويرها وحرمانها من ابسط مقومات الجامعة بمفهومها العام ، ليس قياسا الى البلدان الشديدة التقدم او البلدان النامية بل قياسا الى لبلدان الشديدة التخلف التي تزود جامعاتها بكليات تطبيقية ولا تحرمها من كادرات علمية متخصصة تضطر الى النزوح طلبا للعيش .

وموقف اليمين اللبناني

ان هذا السرد التاريخي الموجز جدا للعلاقة بين الجامعة والدولة انما جاء توضيحا لما نلمسه الان من المشاكل المتعددة التي يطرحها موضوع التعليم الجامعي في لبنان . فهذه الجامعة التي « لم تنشأ نشأة طبيعية بفعل الحاجة الوطنية لوجودها ولم يكن هناك بالاصل اي تخطيط مسبق لانشاءها » (٣) افرزت على الصعيد الاجتماعي جمهورا واسعا من المثقفين والمؤهلين الجامعيين العاطلين عن العمل ، والذين لم تستطع ادارات الدولة ومؤسساتها استيعابهم . وهم لا يستطيعون ان يمارسوا عملا آخر بحكم تخصصهم .

فيما ان الجامعة اللبنانية بنظر النظام يجب ان لا « تزاحم » الجامعات الخاصة « ذات الوجود التاريخي العريق في نشر الحضارة » فقد اقتصرت فروعها على الكليات النظرية التالية :

تقسيم الجامعة استكمال للرغبة الامبريالية بالتخلص منها

- معهد المعلمين العالي الذي اصبح كلية التربية عام ١٩٦٧
- كلية الحقوق والعلوم السياسية والادارية
- كلية الآداب والعلوم الانسانية
- كلية العلوم (وهي كليه نظريه بالدرجة الاولى) .
- معهد العلوم الاجتماعية
- معهد الفنون الجميلة
- كلية ادارة الاعلام .
- كلية الصحافة او معهد الاعلام والتوثيق ..

وتنطبق مواصفات هذه الكليات والمعاهد على الفروع التي استحدثت مؤخرا في مناطق الشمال والبقاع والجنوب ، والتي تزيد بدورها ازمة البطالة والتخمة في حملة الشهادات النظرية .

والجامعة بمجمل فروعها وكلياتها ومعاهدها شكلت تجمعا للطلاب المنتمين الى الطبقات المتوسطة والفقيرة ـ اي صاحبة المصلحة في التغيير ـ والتي كانت تعجز عن دفع تكاليف التعليم المرتفعة في الجامعات الاجنبية . وهي بانجابها جيشا من العاطلين عن العمل عمقت التناقض بين هؤلاء وبين النظام البرجوازي العاجز عن استيعابهم . ثم ان النضال المستمر والدؤوب لطلاب الجامعة واصطدامهم بلامبالاة الدولة تجاه مطالبهم جعلهم اكثر اقترابا من الحياة السياسية واكثر تفهما لطبيعة النظام العاجزة .

اذن فالافرازات التي ولدتها الجامعة اللبنانية عمقت ازمة هذا النظام ووضحتها ووجد الطلاب في الحركات السياسية الوطنية باختلاف اتجاهاتها ملجأ للتعبير عن سخطهم ضد هذا النظام ومؤسساته وتركيبته الطائفية والطبقية التي تحرمهم مستقبلهم وتسد في وجههم مجالات التخصص والتطور .

والنضالات المطلبية المستمرة التي خاضها الطلاب طوال الاربع والعشرين سنة من وجودها ، وقبل بداية الحرب الاهلية (١٩٥١ ـ ١٩٧٥) جعلت من الجامعة اللبنانية احد اهم نقاط الارتكاز التي اعتمدت عليها الحركة الوطنية اللبنانية في نضالها السياسي . وهذا ما دفع باليمين الى شن حملة شعواء ضد الجامعة « وسيطرة اليسار » (ونذكر جيدا ان اولى احداث الحرب الاهلية ابتدأت في الجامعة) . ولقد ادى فشل اليمين الانعزالي في السيطرة على الجامعة سياسيا ونقابيا وجعلها اداة لخدمة سياساته التربوية ومصالحه الطبقية الى السعي لتقسيمها . وهذا ما حصل فعلا حين اقدم هذا اليمين على فتح فروع في المناطق التي تخضع لسيطرته متذرعا « بانعدام الامن » وبان الجامعة اصبحت « مركزا لليسار المخرب والهدام» . ورغم ان هذه الفروع فتحت بطريقة غير « رسمية » الا ان مرسوما اشتراعيا سرعان ما اقره مجلس الوزراء اعطى « الشرعية » لهذه الفروع وعين لها عمداء رسميين كما رصد لها ميزانيات ضخمة ..

وقد شمل التقسيم كل فروع الجامعة ما عدا كلية التربية التي ما زالت قضيتها عالقة ومؤجلة حتى الان ، كما امتد ايضا الى الجامعة الاميركية التي فتحت فرعا لها في المنطقة الشرقية لبيروت . ولم يمس التقسيم الجامعة اليسوعية لانها تقع اصلا في دائرة النفوذ الانعزالي جغرافيا .

ورغم ان التقسيم قد ادى الى ضعضعة الجامعة واضعافها كمؤسسة ثقافية وطنية وكرس الحاجز النفسي ـ الطائفي بين طلابها وساهم في تقوية دور الجامعات الاجنبية كنتيجة لضعف مستوى الجامعة الوطنية ، الا ان الحملة اليمينية ضد هذه المؤسسة استمرت املا في القضاء عليها نهائيا او على الاقل لفرض شروطها السياسية ومد سيطرتها على الفروع الوطنية ايضا . وآخر الخطوات كان القرار الذي اتخذه فجأة رئيس الجامعة اللبنانية الدكتور بطرس ديب بالتخلي عن منصبه في الوقت الذي تعاني فيه الجامعة من المشاكل والصعاب ما يمنع عودة الحياة الطبيعية اليها ويحد من تطورها . واذا كان الدكتور ديب يعاني من ضغوط سياسية انعزالية عليه جعلته غير قادر على الاستمرار في منصبه فجدير بالذكر ان تقسيم الجامعة واعطاء غطاء شرعي واداري لها قد تم في عهده ، وهو الذي منحها الاستقلال الاداري والمالي . وهو طيلة مدة وجوده في رئاسة الجامعة نفذ سياسة تنم عن خضوع لضغوط ومطالب « الجبهة اللبنانية » .

ان هذه الخطوة مضافة الى ما سبقها وما يمكن ان يستجد من خطوات مماثلة ، تشكل في مجملها المؤارة على التعليم الوطني ومحاولة القضاء على مؤسسته الوحيدة وتكريس وجود جامعة ثانية خاضعة لسيطرة الانعزاليين الفكرية والثقافية . والتصدي لهذه المؤامرة ضرورة حتمية لصيانة الجامعة ومستقبلها والمحافظة على التراث النضالي للحركة الطلابية الوطنية اللبنانية .

---

(١) مدخل لدراسة تطور التعليم الجامعي في لبنان ـ الدكتور مسعود ضاهر .

(٢) نفس المصدر .

(٣) « المراجع المؤسسية والوثيقية لانماء الموارد الانمائية في لبنان » ندوة الدراسات الانمائية ١٩٧٤ .